بقلـم:
د. عبد القادر طالب
* أستاذ النقد الأدبي المعاصر - جامعة بومرداس

يطرق هذا المقال «موضوع الهوية «عند المفكر العربي «حسن حنفي»؛ من حيث ماهيتها وسؤال منشئها بالوجود الإنساني وامتداداتها عبر ثوابته (اللغة، الدين، التاريخ..)، ثم من حيث صلتها بالاغتراب؛ الذي يَطَالُ الذاتَ الإنسانية؛ بانقسامها على نفسها وتحوّلها وجوديا من وَضعٍ قائم إلى وضع مغاير له جذّريا، أو بانتقالها من حيّز الحرية إلى حتمية الخضوع والانتماء، تحت طائلة ظرف ما وفي أشكال اغترابية متعدّدة.

سؤال الهوية وفلسفة الاغتراب
من منظور المفكّر العربي «حسن حنفي»

قبل البدء..

يحظى موضوع الهوية، بدءا من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، برواج وتداولٍ منقطع النظير في الوسط الفكري العربي، نظرا لما تثيره من تساؤلات وتطرحه من إشكالات - أرّقت وما فتئت تؤرّق الباحثين والدارسين بمختلف انتماءاتهم ومشاربهم المعرفية -، لاسيما عند البحث في سؤال منشئها وامتداداتها العميقة إلى الخصوصيات الروحية والثقافية والحضارية للأمم قاطبة والأمة العربية والإسلامية خاصّة، التي سعى الاستعمار التقليدي ثم الهيمنة الغربية الحديثة؛ زمن العولمة الثقافية، إلى العمل على طمسها ومحو وجودها، بشكل من الأشكال، في إطار تحقيق مشروع التمركز الذاتي الغربي، الذي يهدف إلى خلق نموذج ثقافي عالمي، يلغي المركزية الهوياتية للأمم والشعوب الأخرى.

ونظرا للحساسية التي تلفّ موضوع الهوية في حاضرنا الفكري والثقافي، وسعيا منّا إلى تسليط الضوء على تلقي الوعي الفكري العربي المعاصر للهوية وإشكالاتها، تحضرني في هذا السياق، تجربة المفكّر والفيلسوف العربي «حسن حنفي» من خلال كتابه (الهوية)، الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، في طبعته الأولى، سنة 2012 م، ناهيك عمّا نشره المفكّر حول هذا الموضوع أو ما يمت بصلة له، من مقالات، في دوريات ومجلاّت فكرية، ثقافية عديدة.

● فما الذي يشكّل الهوية ويحدّد ماهيتها عند (حسن حنفي)؟ ما منهجه في الاشتغال على تيمتها؟

• كيف يحلّ الاغتراب محلّ الهوية في نظره؟ وما الأشكال التي يتمظهر من خلالها؟

• ما السبيل إلى تثبيت الهويّة الأصيلة وتحصينها من هوية الاغتراب؟

- أولا: في ماهية الهوية:

الهوية بفتح الهاء تعني لغة: الكوّة أو المهواة بين جبلين، و قيل: بئر أو حفرة بعيدة المهواة وعرشها سقفها المُغمّى عليه بالتراب، الذي يغترّ به واطئه فيهوى ويهلك... أما الهوية بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء، فتشتق من الضمير (هو)، وتشير إلى المبدأ الدائم الذي يسمح للفرد أن يبقى (هو هو) وأن يستمرّ في كائنه عبر وجوده، وذلك ما ورد بكتاب (التعليقات) للفارابي بأنّ: «هوية الشيء عينيته ووحدته وتشخصه ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك، والهو هو معناه الوحدة والوجود، فإذا قلنا زيد هو كاتب معناه زيد موجود كاتب»، وهو ما أورده الجرجاني في (التعريفات) بعدّها: «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلقة».

أمّا اصطلاحا فتعدّدت تعاريف الهويّة (Identité) بتعدّد العلوم؛ وإن حافظت على معناها الجوهري؛ ففي علم الفلسفة تُعرّف بأنّها: «حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات»، وفي علم النفس تُطلق على «الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، الاستمرار والثبات وعدم التغيّر»، وفي علم الاجتماع، يُقصد بها كلّ ما يميّز الفرد عن غيره ويحدد حالته الشخصية، وما ينطبق على الفرد ينسحب على الجماعة أيضا.

بيد أنّ هذا المعنى الماهوي للهوية (أن يبقى الشيء هو هو) لا يعني ثباتها المطلق وعدم تغيّرها، ففي حيّز الهوية «يتساكن ما هو خاص وما هو مشترك، ويتفاعل الذاتي والغيري وتتقاطب عناصر الثبات وعناصر التغيّر.. بمعنى أنّها نسيج علائقي، متفاعل، متحوّل بتحوّل الظروف والسياقات المؤسسة على مفهوم التطوّر وحركة التاريخ».

- ثانيا: في معنى الاغتراب:

الاغتراب مصدر الفعل (اِغتربَ)، (يغترب)، (اغتراباً)، من الجذر اللغوي (غَرُبَ)، ويفيد معناه لغة عدّة معان؛ فقولنا اغترب فلان، بمعنى: «احتدّ ونشط في حركته، بَعُد أو نزَح عن وطنه، تزوَّج من غير أقاربه، ويقال: اغترب الرجل داخل بلاده: أي أحسّ بالغربة فيها أو فقد ذاته وشخصيته وكأنّه غريب عن مجتمعه».

أما اصطلاحا، فإنّه من الصعوبة الاكتفاء بتعريف واحد لمصطلح الاغتراب (Alienation)، كون أن هذه الكلمة قد عرفت تداولا عبر التاريخ، ولو بمسميات مختلفة من جهة، ثم لما تحمله من معانٍ وثيقة الخصوصية، تختلف من باحثٍ لآخر، من جهة أخرى؛ فالاغتراب ظاهرة لها ارتباط مباشر بوجود الانسان وما له صله بأزماته، «ولذلك فهي تمثّل الهمّ المشترك لعديد من التخصصّات الإنسانية مثل: الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة، الفن، الأدب..».

وهناك إجماع على أن أوّل من استخدم مصطلح الاغتراب كان المفكّر (هيجل) أو (أبو الاغتراب)، كما لقب بذلك؛ بحكم تداوله لهذا المصطلح بجل مؤلفاته ولما شهده معه من تطوّر ملحوظ؛ إذ «تحوّل من مجرد إشكال يعانيه الإنسان في عصور الأزمة أو القلق أو مجرد فكرة ترنق في أذهان بعض المفكرين، أو كلمة ترد في هذا المؤلف أو ذلك، إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق يطلق عن قصد مقصود»، وبعيدا عن الطرح الفلسفي الميتافزيقي الذي كثيرا ما عرف به هيجل، فقد ناقش ظاهرة الاغتراب انطلاقا من الواقع الإنساني؛ فالاغتراب لديه حقيقة أنطولوجية تستمد جذورها من وجود الانسان في العالم، وقد جاء مفهومه للاغتراب مرتبطا بمفهوم الحرّية، فهما – في نظره – قضيتان أساسيتان متناقضتان؛ فلئن كانت الحرية عند هيجل هي امتلاك الانسان لذاته امتلاكا تاما، فإنّ الاغتراب على النقيض من ذلك، يعني انفصال الانسان عن ذاته وأفعاله وعن الآخرين انفصالا تاما، على نحو يؤدي إلى ضياعه واستلابه وسقوطه في العبودية.

كما تناول بعد هيجل، العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء النفس والاجتماع، ظاهرة الاغتراب، الكل من زاوية نظره، فربط ماركس –على سبيل المثال – الاغتراب بظاهرة «اللاأنسنة» التي انبثقت عن الواقع الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي. واعتبر ماركس أنّ مصدر الاغتراب لا يردّ إلى أية قوة خارجية كالتكنولوجيا أو ماكنات الإنتاج وإنما مصدره «فقدان الإنسان لذاته»، وبهذا، اعتبر ماركس أنّ قهر الاغتراب مرهون بقهر ما ليس إنسانيا في الإنسان، أي بالعودة إلى فطرته الإنسانية، التي جُبل عليها، فبذلك فقط، يمتلك الانسانُ نفسَه وحريتَه وينتفي اغترابه.

وليس ببعيد عن مفهوم ماركس، يؤكد إيريك فروم ظاهرة الاغتراب من خلال (فقدان الانسان لذاته)، تحت سلطة الخضوع للأشياء؛ إذ يتعسّر عليه أن يعيش ذاته ويدرك هويته أو يتحرّر من الروابط التي تحدّ من حريته وتحقّق تفرّده، بل يعيش كشيء مفتقر، أسقط وظائف التفكير والاحساس العائدة له على قوى خارجة عن ذاته، ينتفي معها جوهره الحي.

وعموما؛ يظلّ الاغتراب ظاهرة نفسية، اجتماعية، تنبثق عن صراع الفرد مع عدة أبعاد، اختلف الباحثون والدارسون بمختلف توجهاتهم المعرفية والفكرية، في تحليلها وتشخيصها وتحديد أشكالها وتفسير تمظهراتها.

- ثالثا: حسن حنفي وسؤال الهوية:

يعدّ حسن حنفي، الهوية موضوعا إنسانيا وتجربة شعورية بامتياز، ولذلك يجترح لدراستها منهجا ظاهراتيا (فينومينولوجي)؛ من أهم مناهج البحث في التفكير الفلسفي المعاصر؛ فيه تُحللّ الظواهر والتجارب الشعورية عن كثب،»دون الاعتماد في مقدماته أو نتائجه على أدبيات الموضوع من أجل تجاوز منهج

(قال.. يقول) وتجميع أقوال السابقين، فالقول ﴾برأيه﴿ قد يخفي العلاقة بين الذات والموضوع في حين أن التحليل المباشر للظاهرة يعتمد على الحدس، و قلب النظر من الخارج إلى الداخل، من النّص إلى التجربة ومن اللفظ إلى الشيء ذاته»، وذلك ما يُوجِبُ البحث في الهوية.

استهل حسن حنفي حديثه عن الهويّة، بتأكيده على صبغتها الفلسفية، بحكم اهتمام الفلاسفة المثاليين والوجوديين وغيرهم بمسألتها؛ مع حفظ كلٍ منهم لوجهة نظره؛ فمثلما جعلها بعضهم «قانونا في الفكر والوجود «يميّزها عن الغيرية، التي هي نفي لها ولقانونها، قد اعتبرها الوضعيون مجرد «مشكلة زائفة مثل معظم قضايا الميتافزيقا، الحديث عنها لا يعدو أن يكون لغوا»- ثم عرّج بنا إلى تحديد ماهية الهوية، بعدّها توصيفا لما يكون عليه الشيء (هو هو) وليس غيره، من تطابق واتساق، مشيرا إلى أن الهوية كلفظ قد وردت بكتب المصطلحات عند العرب القدامى، مثل كتاب (التعريفات) للجرجاني، كما تداولها المحدثون وإن اختلفت المصطلحات، مؤكّدا أنّه رغم الطابع الفلسفي الميتافزيقي للهوية، فإنّها تعدّ مشكلة نفسية وتجربة شعورية، بل هي موضوع إنسانيّ خالص؛ فالإنسان هو الوحيد الذي تتقلب فيه الهوية؛ فإمّا وجود وإمّا عدم؛ إمّا هوية وإمّا غيرية.

أمّا بشأن حضورها بالفكر العربي المعاصر، فقد أكّد ارتباطها به، منذ فجر النهضة العربية إلى الآن، كونها فترة كشفت عن صراع الهويات من جهة – ففي عصر النهضة تجلّى صراع الهويات مثلا، بين الهوية الإصلاحية التي يمثلها الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس وعبد القادر الجزائري، والهوية الليبرالية التي يمثلها الطهطاوي وطه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل..–، ومن جهة أخرى، فالهوية لم تكن موضوعا نظريا وإنما موضوع تاريخي ارتبط بوجود العرب منذ الأزل.

بيد أنّ السؤال المطروح هنا: ما الذي يشكّل الهوية؟ ومم تنشأ؟ ما المصدر الذي يحدّد هويتنا وإليه يكمن انتماؤنا؟

أيكمن ذلك في الانتماء العرقي؟ أم القبلي؟ أم اللغوي؟ أم الديني؟ أم جميع ما ذُكر؟

لا شك أنّ هوية الإنسان ترتسم في أشكال متعدّدة وتتجلى في جوانب متنوعة، ومن الصعوبة بمكان حصرها في مصدر دون سواه؛ إذ «على الرغم من البساطة الظاهرية التي يتبدّى فيها مفهوم الهوية، فإنّه وعلى خلاف ذلك يتضمّن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة..، فالهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنّها حقيقة تولد وتنمو، وتتكوّن وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب».

وفي سياق بحث حنفي عن إجابة شافية، كافية لهذا التساؤل، نجده أفرد مبحثا خاصا بمؤلفه سالف الذكر لمناقشة هذه الإشكالية، استهلّه بسؤال صريح: هل يمكن تحديد الهُويّة؟.

بيد أنه لم يجد – وهو يبحث في نشأة الهوية – إجابة تُمَركِزُها في حيّز

واحد أو تنسبها إلى جانب ثابت، وإنّما ظلّ محلّقا عبر عوالم وتصورات متعدّدة؛ فقد افترض أن تكون نشأة الهوية من المكان؛ بحجة أنّ «الإنسان يولد في بقعة من الأرض في وطن وفي دولة، ينشأ فيه ويترعرع، يقضي طفولته وصباه ورجولته وشيخوخته. يحنّ إليه كلما غادره، غير أنّ الوطن يجاوز الحدود الجغرافية بمنظور فتشه مثلا، فهناك الوطن المثالي، الوطن الفكرة، الوطن الرّوح..»، كما افترض حنفي أن تنشأ الهوية من العرق؛ فلكلّ أمة عرق تنسب إليه، غير أنّه «يصعب تحديد الأعراق نظرا إلى التداخل فيما بينها من خلال التزاوج والهجرات، بل والحروب والغزوات»، ثم افترض نشأتها عن الدّين، ثم اللغة، فالثقافة، وغيرها من الفرضيات التي صاغها حنفي، يقرّبها، يعرّفها، ويقدّم على عجل تفسيرا لمعطياتها ثمّ يمضي إلى شأن جديد، لا يلوي على شيء.

– فما الذي خَلُص إليه حسن حنفي من كل هذا الزخم المعرفي حول سؤال نشأة الهوية؟

إن ما صاغه حنفي من فرضيات، ما كان إلاّ تصورا تمهيديا لتحديد موقفه من نشأة الهويّة، إذ ضرب عرض الحائط كل الفرضيات السابقة، مؤكّدا «أن الهوية إنسانية تتجاوز الحدود الجغرافية والعرقية والثقافية.. وقد ظهرت هذه الهوية الإنسانية في كل حضارة، عند كونفوشيوس في الصين وبوذا في الهند، وسقراط عند اليونان، والمعرّي عند العرب..، هي الهوية التي تنبع من الذات من الجوهر، لا من الأعراض الخارجية، هي الهوية التي تصبح فيها الإنسانية هوية واحدة لا تمييز فيها بين أجناس أو لغات أو ثقافات أو أوطان»؛ هوية تشمل قيما عامة؛ كقيمتي الحرّية و العدالة التي التفّت حولها الإنسانية، وحاربت من أجلها منذ الأزل؛ منذ سبارتاكوس حتى الربيع العربي.

ويحاول حنفي إثبات هذه الهوية الإنسانية – التي وسمها بـ «الهوية التاريخية» أيضا–، بعرض مسارات تاريخية نفعية لها، تبادلية، طردية، بين حضارتي الشرق والغرب، منذ القديم وإلى غاية الآن؛ وخير مثال على ذلك – برأي حنفي – أنّه «كما بدأت العنقاء تطير من الشرق إلى الغرب في الماضي من الصين وفارس وبابل وآشور وكنعان ومصر واليونان والرومان والعرب والحضارة الإسلامية حتى الغرب الحديث، فإنّها تطير من جديد عائدة من الغرب إلى الشرق مارّة بالمنطقة العربية الإسلامية، فالهوية التاريخية تتحرّك الآن ونحن في قلبها، وقد يكون الربيع العربي أحد مساراتها.» ونموذجا لتجلّيها.

- رابعا: بين الهوية وفلسفة الاغتراب:

(كلما تحسست الوجود، أكتشف أن لا وجود له. أين أنا؟ من أنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ما هو الشيء الذي يُسمى بالعالم؟ من هو الذي ضللني إليه وتركني هنا؟)

الفيلسوف سورين كيركجارد

من منطلق أن المفاهيم تُعرف بأضدادها وأنّ غياب مفهوم يستدعي حضور ضده، فإنه مثلما وعي الذات بكينونتها، نابع من الإيمان بهويتها والشعور الممتلئ بانتمائها؛ شرط تماسكها وانسجامها من الداخل إلى

الخارج ومن الخارج إلى الداخل، فإنّ فقدان الهوية وغيابها، يتخلّق من غياب وعي الذات بها أو استلابه، بشكل من الأشكال وتحت طائلة ظرف ما، وهو ما اصطلح عليه علماء الفلسفة والنفس والاجتماع، مصطلح (الاغتراب).

- فكيف قدّم حسن حنفي للثنائية الجدلية: الهوية والاغتراب؟

تأسيسا على مقولة (الوجود أسبق من الوعي)، وبناءً على أنّ «الهوية هي الماهية،﴿ومنه﴾ فإن الوجود يسبق الماهيّة»، ينفي حسن حنفي أن تكون الهوية معطى ثابتا، تعيها الذات مباشرة، وإنما «هي شيء يُخلَق، لا يشعر بها كل إنسان كوعي مباشر؛ فالإنسان اليومي يوجد أولاً، يعيش أولا، ثم يعي ذاته ثانيا، يأتي الوعي الذاتي بعد الوجود البدني ثم يأتي الوعي بالعالم المحيط، وحينها ينشأ التساؤل عن هويته: من هو؟ ولماذا هو في هذا الوضع الاجتماعي؟» وغيرها من التساؤلات التي يفرضها عليه واقعه المعاش، بما يحمله من مفارقات وتناقضات.

وتقوم الهوية في نظر حنفي بتوفر شرط الحرّية، فهما أمران متلازمان؛ فالهويّة «إمكانية حركية تتفاعل مع الحريّة.. لأنّها إحساس بالذات والذات حرّة، والحرّية قائمة على الهوية لأنّها تعبير عنها، والحرّية تحرّر أي أنّها إمكانية لأن يكون الإنسان حرا، ﴿ومنه، فـ﴾ الهوية إمكانيّة على إمكانية»، ونستخلص من هذا المعطى، أن حسن حنفي يجعل من الحرية شرطا أساسيا لقيام الهوية، وبغياب الحرية ينعدم وجود الهوية، وليس ذلك بمفهوم جديد؛ فقد أكّده قبله العديد من الفلاسفة والمفكرين، الذين تطرّقوا إلى ظاهرة الاغتراب في الوجود الإنساني، وعلى رأسهم (أبو الاغتراب/ هيجل) كما أشرنا إلى ذلك ضمن تعريفه لمصطلح الاغتراب.

- فمتى يحلّ - إذن - الاغترابُ محلّ الهُوية في نظر حنفي؟ ما أسبابه؟ وما هي أشكاله؟

يحلّ الاغتراب محلّ الهوية – برأيه–، لحظة انفصام الذات وانقسامها على نفسها، إذ يطرأ تغيّر جذري على مسارها، تتحوّل بموجبه عن وضعها القائم إلى وضع مغاير، تحت سلطة الظروف الخارجية واستبدادها، مما يلغي حرية الذات الداخلية ويفقدها وجودها، بحيث «يصبح وجودها مثل العدم، أو على الأقل مثل الوجود الطبيعي للأشياء» وعدمية الوجود تولج الذات في دوامة الاغتراب الوجودي، لأن الهوية هي الوجود في الأصل وفقدانها، يبعث مشاعر الإحباط والخيبة والضياع، وهذا الاغتراب «هو الأكثر شيوعا والأكثر وقوعا؛ فالهوية حالة مثالية في حين أن الاغتراب حالة واقعية، بل كما يعتقد بعض الفلاسفة أن الهوية مجرد افتراض ميتافيزيقي على درجات من الشدّة والإنسان الطبيعي هو الذي يوجد بين قطبي الهوية والاغتراب»، و لعلّ ذلك ما جعل الفلاسفة والمفكرين والمثقفين، يتوقفون مليّا عند ظاهرة الاغتراب وأشكالها بالوجود الإنساني، كلّما كان حديثهم مشدودا إلى مسألة الهوية.

وفي دوامة الاغتراب تنحو الذات منحيين؛ فإما تكون منعزلة، منطوية،

وإما منتشرة عنيفة إلى الداخل أو إلى الخارج، فكل هوية فارغة، بلا مضمون، تأخذ من ذاتها مضمونا بعد أن ضاع مضمونها، وفي هذه الحالة إمّا تبقى في حالة كمون و إمّا تنطلق فتأخذ طريقا آخر، هو طريق العنف والعدوان، وفي كلتا الحالتين هما خارج الوجود الإنساني وانحرافا عنه لا تحقيقا له؛ فالحبيب الذي هجرته حبيبته مثلا، قد يشعر بالإحباط والضياع وعدمية وجوده، كما يستشعر ذلك الوجوديون أمثال: سارتر وهيدجر، وقد يلجأ إلى الخيانة، مكتشفا هويته في غيره.

ولذلك، فإن الاغتراب – في نظر حسن حنفي – يتمظهر في ألوان مختلفة، ويأخذ أشكالا متعددة، نافيا أن تكون هذه الأشكال هوية حقيقية، كما اعتقد البعض، ومن أبرزها:

- الاغتراب الدّيني:

يتجلّى هذا الشكل من الاغتراب من خلال احتماء الذات باثنين: علم العقائد والتصوّف، تعويضا عن عجزها بما هو أقوى منها؛ ففي علم العقائد يوجد «الأعلى والأدنى الخالق والمخلوق، الأبدي والزمني، الخالد والفاني.. الأوّل تستريح إليه النفس والثاني تشقى فيه الأوّل بيده كل شيء، العلم والفعل» والقدرة والكمال، أمّا الثاني، فلا كمال في العلم، ولا قدرة في الفعل، وفي ذلك إثبات بيّن لضعف وعجز الذات المغتربة، التي يدفعها مخيالها إلى تعويضه وإخفائه؛ احتماء بالذات الخالقة، التي ترى فيها نفسها وكمالها «كردّ فعل على الإحساس بالجهل والعجز والموت.. وتُعزى الذات وتجسّد آمالها وما تريد تحقيقه في أسماء الله التسعة والتسعين، تعبّر عمّا يريد الإنسان تحقيقه من عزّة وقوّة وهيمنة»، تستردّ ماهيته، كمحاولة للقضاء على هذا النوع من الاغتراب.

وفي حديث حسن حنفي عن الاغتراب الديني، تأثّر جليّ بفكر الفيلسوف الألماني لودفيج فيورباخ (1804–1872م)– الذي يمثل الاغتراب الديني عنده أساس كل اغتراب، سواء كان فلسفيا أو اجتماعيا أو نفسيا – لاسيما عند اعتقاده أن «الدّين هو وعي الانسان بذاته على نحو غير مباشر، لأن الدّين هو علاقة الانسان بذاته كموجود آخر، فالوجود الإلهي ليس إلاّ ماهية الانسان مستقلة عن حدود الانسان الفردي الواقعي وأنّ الصفات الإلهية التي يضفيها الانسان على الذات الإلهية هي صفات إنسانية كالرحمة، الحب، العدالة، القدرة، الوجود، المعرفة.. وإذا كان الله ليس إلاّ ماهية الانسان بعد أن يتمّ تجريده من تحديدات الانسان الفردي، فإنّ الايمان بالله، هو الإيمان بالإنسان، بماهيته الحقيقية».

وكما يتجلى الاغتراب الديني في جانبه العقائدي، يتجلى في جانبه التصوّفي «على نحو عاطفي وجداني ذوقي»، بين الخالق والمخلوق؛ فكما أن الذات في عالم العقائد، تستردّ ماهيتها، احتماء بالذات الإلهية، بصفاتها وأسمائها – عبر مخيالها طبعا –، فإنّ الذات المغتربة بالتصوّف، تتخلّى عن هويتها وعالمها وصفاتها الإنسانية أيضا، لتتحدّ وتفنى في الذات الإلهية؛ فبدلا أن تكون الذاتان ذاتين، تصير ذاتا واحدة؛ كما يذهب إلى ذلك عموم أعلام التصوّف، مثل محيي الدّين بن عربي:

فنحن، وإن كنّا مثنًى شُخوصُنا
فما تَنظُرُ الأبصارُ إلاّ موحّدا

وما ذاك إلاّ من نُحولي، ونُورهِ
فلَولا أنِيْنِي ما رَأتْ لي مَشهَدَا

وتلك خطوة من الذات المغتربة نحو «إعادة المظاهر التي بها قسمة وتعارض؛ وليدة اغتراب الأصل عن نفسه، إلى وحدتها وحلم باستعادة أصلها السابق وإنهاء ظاهرة اغترابها»، وكذا بلوغ الكمال الإنساني والتسامي والمعرفة.

- الاغتراب السياسي:

لئن كان الاغتراب الديني، يدفع بالذات إلى الاحتماء بالذات الإلهية، للاتّصاف بصفاتها وأسمائها، أو بالحلول والفناء فيها، تجاوزا لعجزها وتحقيقا لما تحلم به وتفتقده في واقعها، فإنّها تلجأ درءا لاغترابها السياسي «إلى الاحتماء بالأيديولوجيا السياسية، بصرف النظر عن نوعها، أليبرالية كانت أم ماركسية أم اشتراكية أم قومية؛ فالحقيقة ليست في تحقّق الهوية في العالم، ابتداء من وحدة الذات دون انقسامها، بل في المذهب السياسي، تماما مثل الاغتراب الديني، الذي يرى خلاصه في العقيدة الدينية»، لكن رغم ما يجمع بين الاغترابيين؛ من حيث البحث عن الهوية الضائعة والعثور عن بديل يعوّضها ويسدّ فراغها إلاّ أن هناك فرقا بيّنا بين اغتراب الذات سياسيا واغترابها دينيا؛ ففي الاغتراب السياسي، ترتسم هوية الذات في مذهب نخبوي أو حزبي، ليس بالضرورة أن يتحقّق، أو تكون له جماهير، بينما تنبع هوية الذات المغتربة دينيا، من قلب الجماعة أو الجمهور.

وإن كان الهدف بينهما مشتركا أيضا، فإن النتيجة تبقى متباينة؛ وهذا ما يحوّلهما إلى هوية ثالثة تسدّ مسدّهما؛ فإذا كانت الهوية الدينية ممثلة في الخطاب السلفي - كما يرى حنفي – على مَعرفةٍ بالموروث الديني، لكنّها لا تعرف الدعوة إلى ذلك؛ وكانت الهوية السياسية مجسّدة مثلا في الخطاب العلماني تعرف المناداة بالحرية والديمقراطية والتعدّدية السياسية، لكنّها لا تجسّدها واقعا؛ فإنّ الفراغ المترتب عن هذين الخطابين، يدفع بالذات إلى البحث عن خطاب آخر تعويضا عن الهوية المفقودة؛ خطاب توافقي بين الموروث الديني والمضمون الليبرالي؛ يجمع بين الروح والبدن؛يردم الهوة أو يقلّص الفجوة الحاصلة بين الهوية السلفية والهوية العلمانية، ويجنّب الذات ديمومة التشظّي والاغتراب.

- الاغتراب الاجتماعي:

تضعنا عبارة (الملكية أساس الاغتراب)، في السياق العام لاغتراب الذات اجتماعيا؛ فالملكية هي المحنة المركزية التي تضطهد الإنسان وتسلب منه هويته (محكوما كان أو عاملا)، إكراها وتسلّطا من قِبَلِ (الحاكم أو صاحب العمل)؛ لاسيما في المجتمعات الطبقية، ولذلك؛ يرى حسن حنفي أنّ التحرّر من هذا الوضع «يبدأ بالتحرّر من الملكية..

ومن ثمّ؛ لا يسترد الإنسان هويته إلاّ إذا صحّح وضعه الاجتماعي.. وشعر بقيمته وتحرّر من وضعه الطبقي، ولا

يتأتى ذلك إلاّ بالصراع الطبقي وتحرير العبد من السيّد»، وقد وقف ماركس مليّا عند هذا الشكل من الاغتراب؛ مشخّصا ومحللا أوضاع الطبقة العمالية في المجتمعين الصناعي والإقطاعي.

وفي هذا السياق، يقسم حسن حنفي الذات المغتربة اجتماعيا إلى ثلاث طبقات؛ عليا ومتوسطة ودنيا، كل طبقة تحاول الاحتماء بما يحفظ مصالحها، وقد يكون هذا الشكل من الاغتراب خارجيا كما يكون داخليا؛ أمّا الخارجي، فكأن تعوّض الذات اغترابها، بما يقدّم لها من سلع تموينية مدعّمة أو خدمات مجانية؛ كعلاج وتعليم حكومي ووظائف للعاطلين عن العمل، وقد تكون هجرة الذات بنوعيها الشرعية وغير الشرعية، منفذا للخلاص من هذا الاغتراب، أمّا الداخلي، فقد يتمظهر فيما يصدر عن الذات من انحرافات، مثل الشذوذ الجنسي والإدمان على المخدّرات..»وفي كلتا الحالين تغيب الهوية الذاتية الملتزمة بالواقع الاجتماعي، وقد يقع القتل في الاغتراب الأوّل شراهة، وفي الاغتراب الثاني من الجوع، وفي كلتا الحالين تغيب القيم، و هنا لا فرق بين غنّي و فقير، فكلاهما يتساويان في الاغتراب في الغنى و الإغناء، والاغتراب في الفقر والإفقار»، وبهذا؛ فالذات المغتربة اجتماعيا؛ يضحى الانفصام عقيدة لها؛ إذ تظلّ منقسمة في صراعها بين ما تريد وما لا تريد.

- الاغتراب الثقافي:

مثلما أن الهوية ظاهرة اجتماعية، فإنّها ظاهرة ثقافية أيضا، تحدّد ماهية المجتمعات بمكوّناتها الثقافية؛ ماديّة كانت أو معنوية؛ فالثقافة كما عرّفها (إدوارد تايلور) هي ذلك الكل المعقد «الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع»، أو كما يعرّفها عالم الاجتماع (روبرت بيرستد):

«هي ذلك الكل المركّب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في مجتمع» ما، وبذلك؛ فالهوية الثقافية شاهد بيّن على وجود هذه المجتمعات وحضورها الدائم عبر الزمن.

بيد أنّ محنة الهوية الثقافية بأقطار وطننا العربي، لا تقلّ عن محنته الاجتماعية أو السياسية؛ فبعد أن أحكم المستعمر قبضته على الكثير من بلداننا وعاث فيها فسادا ماديا، حاول موازاة مع ذلك مرارا وتكرارا، أن يطمس هويتها الثقافية معنويا، فكاد – قاب قوسين أو أدنى – أن يبلغ مراده، لولا أن قيّض الله لهذا الوطن، رجالات من العلم والفكر، تصدّوا – بما آتاهم الله من قوّة البصيرة و بسطة في العلم – إلى مخططات المستبدّ، الظاهرة منها والمضمرة. لكن بعد تحرّر أقطار الوطن العربي من أغلال المستبد، عادت إشكالية الهوية الثقافية للأمّة العربية، إلى الواجهة من جديد، وما فتئت – إلى غاية عصرنا هذا – تُطرح قضاياها وإشكالاتُها، بحدّةٍ أكثر من ذي قبل، ومردّ ذلك – كما يقول حنفي – عودة المستعمر من خلال الثقافة، وانتشار التغريب؛ فقد استقلت الأوطان و لكن احتلّت الأذهان، فولّد

الفعل؛ وهو التوجه نحو الآخر، ردّ فعلٍ، وهو الرجوع إلى الأنا، كما هو الحالُ في الثورة الإسلامية في إيران والحركة الإسلامية المعاصرة في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي، ووقعنا في ازدواجية الثقافة. ومن مظاهر الاغتراب الثقافي، التي أشار إليها حنفي عبر كتاباته:

- **أولا:** التعدّد اللغوي الهجين، حيث أدى انفتاح العالم العربي على العالم الغربي، اقتصاديا وسياسيا انفتاحه على لغاته أيضا؛ مما ألحق باللغة العربية، ترسانة من الألفاظ والكلمات الأجنبية، الغريبة عنها، مما جعلها لغة هجينة بمزيج من اللغات؛ فضاعت الفصحى وازدوجت مع العامية، وأضحى العربي لا يسلم نطقه من اللحن والزلل، وقد سقط في هذا المزلق، كل أفراد شرائح المجتمع العربي، سواء كانوا قادة أو مثقفين أو أساتذة جامعات أو رجال إعلام، كما طال الأمر أيضا، مجال العلوم الحديثة؛ كالطب والصيدلة، ومجالات العلوم الإنسانية؛ كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما؛ إذ حفلت بكلمات لغة معرّبة، سمّيت بلغة (الفرانكو آراب)، فكيف للغة بمثل العربية أن تعاني اغترابا بين أهلها وذويها وقد حباها الله كل التقديس؟ كيف للغة «اتسعت مدلولاتها للقرآن الكريم وآياته، ألاّ تتسّع لأن تكون أقدر على التعبير عن مستويات تقدّم الإنسان عبر العصور»، وتكون وعاء يستوعبُ جديدَ كل علمٍ؟:

وَسِعْتُ كتابَ الله لفظا وغايةً
وَمَا ضِقتُ عن آيٍ به وَعِظَاتِ

فَكَيفَ أَضِيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ
وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعاتِ

ولا يتوقف الاغتراب اللغوي بالوطن العربي عند غزو اللغة العربية من قبل لغات الآخر، وما يترتب عن ذلك من خطر كبير، يهدّدها ويهدّد هوية الناطقين بها، وإنما ما يحدث داخل الوطن العربي ذاته، من تنوع لغوي أو تعدّد لهجي، يهدّد بدوره هوية الوطن ويعصف بوحدته أيضا؛ إذ«قد تمتد التعددية اللغوية إلى مستوى الثقافة فتصبح التعددية الثقافية أساسًا ومقدمة لتفتيت الأوطان»، ورغم أن الوطن العربي واحد باسم اللغة والثقافة والتاريخ المشترك والأرض المتواصلة، فإنّ قضية التنوع اللغوي من داخله، هي خطوة نحو سقوط الأوطان؛ دولة كردية في الشمال ودولة شيعية في الخليج، ودولة افريقية في جنوب السودان ودولة أمازيغية في جنوب المغرب العربي، وهلمّ جراً مع دول عربية أخرى، إن لم يتم تقسيمها تحت حجة التعدّد اللغوي والتنوّع الثقافي، فسيأتي دورها يوما ما؛ فكل متوقعٍ آتٍ.

- **ثانيا:** الانبهار بالفكر الغربي ومذاهبه؛ حيث «تحوّلت مساحة كبيرة من ثقافتنا المعاصرة إلى وكالات حضارية للغير وامتداد لمذاهب غربية اشتراكية، ليبيرالية، قومية، وجودية وضعية، شخصانية، بنيوية، سيريالية، تكعيبية..، حتى لم يعد أحد قادرا على أن يكون مفكرا أو عالما أو فنانا، إن لم يكن له مذهب ينتسب إليه، ووضعنا أنفسنا أطرافا في معارك لسنا أطرافا فيها، وتفرقنا شيعا وأحزابا كما تفرّق القدماء من ذواتهم، ولكن فرقتنا هذه المرة لم تكن موقفا من الذات بل تبعية للآخر» أو موالاة له، تحت سلطة

المصلحة الذاتية، ومنطقها الضيّق، الذي يهوّن من قيمة الهوية الوطنية، و يغري بالذوبان والانحلال في هوية الآخر.

- **ثالثا:** الطابع العمراني الذي لا يمت بصلة إلى هوية الأمتين العربية والإسلامية؛ فقد «تحوّلت مدننا إلى خليط من أساليب العمارة لا هوية لها؛ فلا هي تقليدية حافظت على الطابع القديم ولا هي حديثة، لها طابع الحداثة، ولا هي عملية ناتجة عن مقتضيات البيئة» والجغرافيا.

- **رابعا:** يمتد الاغتراب الثقافي إلى طبيعة اللباس و طقوس ارتدائه أيضا؛ فاللباس باختلاف تفصيلاته وأشكاله وألوانه لدى كل مجتمع، قد تجاوز الغاية التي وضع لأجلها؛ وهو ستر العورة ليأخذ «منحى الدّال الثقافي الذي يتّسع ليحتوي أفكار الناس ورموزهم وأسئلتهم المشتغلة بشكل واع، في أذهانهم ومفكراتهم، وأصبح اللباس بفعل ذلك؛ لغة تعبّر عن فلسفة جيل وملمح ثقافة معيّنة»، بيد أن الحديث عن اللباس العربي في عصرنا هذا، قد فقد جزءا كبيرا من هويته، بسبب الماركات التجارية الغربية للألبسة، التي غزت أقطار الوطن العربي، فلاقت رواجا كبيرا و إقبالا سريعا في اقتنائها، من قبل أفراد الأمة العربية، إلى درجة قد يتوهم الرائي و يصعب عليه التمييز بين أفراد مجتمعه وبين الأجانب عنه؛ جنسية وثقافة.

- الاغتراب التاريخي:

بناء على تصوّر حسن حنفي، يتجلى اغتراب الذات تاريخيا في مظهرين رئيسيين؛ المظهر الأوّل يشدّ الذات إلى ماضيها ويبعدها عن حاضرها؛ لما تلمسه في الماضي من آمان وسلام وصفاء، يفتقد إليه الحاضر؛ ولذلك؛ «فالماضي أفضل من الحاضر، والصحابة والتابعون أكثر إغراءً من لصوص اليوم والمرتشين، الماضي مفتوح عن طريق الخيال والتمنّي والحاضر مسدود عن طريق العقل والفعل» ومن هذا التوجه نشأ الاتجاه المحافظ أو الحركة السلفية، التي وجدت في نصوص الدين وفي الموروث الشعبي ما يزكّي وجودها ويرسّخه، يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، ومنه، فمقاطعة الذات للحاضر أيسر وأهون من مقاطعتها لماضيها الأمر الذي حال – كما يرى حنفي – بين هذه الذات وبين مفهوم التقدّم والانفتاح على الثقافة.

أما المظهر الثاني؛ فتتوجّه فيه الذات إلى المستقبل، «فتنشأ الحركة العلمانية التي تودّ نقل الحاضر إلى نموذج واحد يقوم على المجتمع المدنّي في مجتمع دينيٍّ وعلى الديمقراطية في مجتمع ذي ثقافة استبدادية وعلى التعدّدية في مجتمع يقوم على الفرقة الناجية.. وعلى المساواة في مجتمع تقوم ثقافته على التمايز الطبقي.. ويسعى إلى تأسيس عقلانية في مجتمع يقوم على الخرافة، ويطمع في إقامة مجتمع علميّ وثقافته تقوم على الأسطورة»، وبما أن هذا التوجه، لم يكن للتواصل مع الحاضر ذاته، وإنّما لتحقيق مصالح ذاتية؛ تدور رحاها حول السلطة وسدّة

الحكم، فإنه يبقى مجرد «استبدال نظام بنظام، ومؤسسات بمؤسسات، وخطاب بخطاب، من دون أن تتغيّر العقلية والمنظور والرؤية إلى العالم»؛ وبهذا، تظلّ الذات مع هذا التوجه أيضا، عاجزة؛ لا يمكنها أن تسترد هويتها ولا تتخلّص من اغترابها.

- على سبيل الختام:

لا شك أنّ التحّدي الكبير، الذي يضعنا اليوم على المحكّ وأكثر من ذي قبل؛ يتطلب الإجابة عن التساؤل الآتي:

• ما السبيل إلى تثبيت هويتنا وتحصينها من المدّ الاغترابي؟

يقدّم حسن حنفي، في هذا السياق، جملة من الرؤى والتصوّرات؛ يراها كفيلة، بتجنيب مجتمعاتنا العربية، من ظاهرة الاغتراب، والمحافظة على هويتها، بمختلف أشكالها وتجلياتها، أهمّها:

– الثقة بالنفس والوعي بها وإزاحة الإحساس بالعجز، هو سبيل الذات المغتربة، إلى استرداد هويتها وإزاحة القسمة عن كاهلها والمحافظة على وحدتها؛ فما يحمي الذات من تفجّر هويّتها خارجها لابتلاع ذوات الآخرين هو ما يفهم من وجود الآخر في الذات.

– الإيمان بأن البشر متساوون في الإبداع، والحضارات بين المدّ والجزر، لا توجد حضارة باقية للأبد وأخرى ساقطة للأبد؛ فمسار الحضارات في دورات عبر التاريخ.

– توخي الصدّق وتجنّب النفاق، فما يكون في القلب يجري على اللسان؛ لابد من التوحيد بين الهوية واللغة، بين الوجود والكلمة؛ فالاغتراب ازدواجية، ولا يمكن القضاء عليه بازدواجية أخرى.

– إعادة النظر في موقفنا من التراث القديم؛ فذلك كفيل بإعادة بناء الأنا والقضاء على اغترابها؛ فالجهة التي وقعت في التغريب، هي التي انفصلت عن التراث، لأنّها لم تجد نفسها فيه، فلم تستطع أنّ تغيّر من مستوياته أو تعدّل من محاوره أو تعيد الاختيار بين البدائل؛ فارتضت كضرورة، مزاحمة الفكر الغربي لتراث الأمة ومكوّنها الرئيسي، فنشب العداء بين أنصار القديم وأنصار الجديد، ونشأت الازدواجية في الشخصية القومية والفصام النكد في الثقافة الوطنية.

– في الفكر الإسلامي نماذج عملية عديدة، الوعي بها، يحفظ الهوية ويجنّبها خطر التغريب، منها ما حث عليه القرآن الكريم، كتحريم موالاة الغير، والتقرّب من الأعداء، والتودّد إليهم؛ فغاية الأعداء القضاء على هوية الأنا وإيقاعها في التقليد الأعمى، يقول الخالق تبارك وتعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

– الاحتذاء بالفكر الإسلامي القديم والحديث، فلنا فيهما أمثلة وصور نموذجية، عن تمثّل معطيات الحضارات السابقة، دون فقد للهوية الشخصية أو إلغاء لخصوصية الأنا؛ إذ لم ينبهرا بما حققته هذه الحضارات من منجزات، وإنّما حاولا مواكبة مستجدّاتها بوعي وتقصٍّ كبيرين.•